

جناية أحمد أمين

على الأدب العربي

للدكتور زكي مبارك

- ١٦ -

—————

كان الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام شرع في الرد على الأستاذ أحمد أمين، فقلت في نفسي: يحسن ترك المسائل التي نقدها الدكتور عزام حتى لا يكون في هذه المقالات حديث معاد. وهل كان الفرض من هذه المقالات إيذاء الأستاذ أحمد أمين بالذات حتى نعيد القول فيما نقده الدكتور عزام؟ إن الفرض هو التنبيه على أغلاط الأستاذ أحمد أمين حتى لا يفتن بها من يتقون بكفايته العلمية من طلبة الآداب في مختلف المعاهد العالية، وقد حمل الدكتور عزام بعض تلك الأعباء

كذلك حدثت نفسي حين قرأت ما كتب الدكتور عبد الوهاب عزام في كشف أغلاط الأستاذ أحمد أمين

ولكني رجعت عن هذه النية فيما بعد حين رأيت أن لي مسالك في النقد تباين مسالك الدكتور عزام وتجمل القراء في أمان من نجر الحديث للمعاد

زعم الأستاذ أحمد أمين أن علماء العرب «رفعوا من قيمة كل شيء جاهلي وغلوا في تقديره: فالماء الحقيز في مستنقع جاهلي خير من دجلة والفرات والنيل وكل أنهار الدنيا، والجرادان اللتان غنتا للنمان كان صوتهما وغناؤهما خيراً من كل صوت وكل غناء، ودوسر كتيبة النمان بن المنذر أقوى جيش عرفه التاريخ، وأيام العرب في الجاهلية ووقائعها الحربية لا يبادلها أي يوم من أيام المسلمين، وجبلا طيء خير جبال الدنيا، وحاتم الطائي لا يساوي كرمه كرم. حتى الرذائل لا يصح أن يساوي برذيلهم رذيلة، فليس أبجل من مادر، ولا أشأم من البسوس، ولا أسرف من شظاظ»

أندرون ما الذي قال الدكتور عزام في نقد هذا الكلام الأجوف؟

قال إنه يقوم على أساس المبالغة والإغراق وهذا نقد جارح: لأن اتهام أستاذ من أساتذة الجامعة بالمبالغة والإغراق له عواقب سود. وما الذي يبقى لأساتذة الجامعات إذا حُرموا من حرية التحديد في شرح للمقاصد والأغراض؟ وهناك كلمة طواها الدكتور عزام وهي كلمة «الافتراء»، فقد افترى أحمد أمين على علماء العرب حين زعم أنهم لا يرون أن أي يوم من أيام المسلمين يبادل أي يوم من أيام الجاهلية، ونحن نتحدها أن يثبت أنه رأى شواهد هذا الرأي في أي مكان من كتب الأدب أو التاريخ. نتحدها، نتحدها، فلينطق إن كان من كلامه على يقين

وهل شغل المؤلفون بتدوين أخبار الحروب في الجاهلية كما شغلوا بتدوين أخبار الغزوات والفتوحات؟

وما هو النص الذي يشهد بأن الماء الحقيز في مستنقع جاهلي كان عندهم خيراً من دجلة والفرات والنيل وسائر أنهار الدنيا؟ وما هي العبارة التي تنص على أن جبلي طيء كانا عندهم خير جبال الأرض؟

وإذا كانت الجرادان اللتان غنتا للنمان كان صوتهما وغناؤهما خيراً من كل صوت وكل غناء فكيف استجاز أدباء العرب أن يشغلوا أنفسهم بتقييد أخبار الأغاني والمثنيين في عصر بني أمية وعهد بني العباس؟

إن أحمد أمين قد يستطيع النهوض من كبواته الكثيرة، ولكنه لن ينهض أبداً من هذه الكبوة. وستظل شاهداً على أنه يكيل الأدب والذوق بمكيال، مع أنه بحكم منصبه مسئول عن إدراك دقائق الفروق بين الألفاظ والمعاني

أروني أقف عند الحد الذي اكتفى به الدكتور عزام حين قال: إن كلام الأستاذ أحمد أمين في هذا النقطة يقوم على أساس المبالغة والإغراق؟

هيات، هيات ١١

سأقول إن كلام أحمد أمين صدق في صدق، وسأرجوه أن يتحمل الصدمة بريادة جاش

أفي الحق أن العرب يرون الماء الحقيز في مستنقع جاهلي خيراً من دجلة والفرات والنيل؟

إن العربي في جاهليته كان يرى ماء خير المياها ، لأن كلمة «ماء» عند أهل الجاهلية ترادف كلمة «الوطن» ومن حق الرجل الكريم أن يرى وطنه خير الأوطان

وأصدق على الأستاذ الناقد فأقول إن الكتب المؤلفة في «مياه العرب» لم يكن يراد بها وصف تلك المياه من وجهة طبيعية كأن يقال هذا ماء عذب وذلك ماء أجح ، وإنما كان يراد بالحديث عن «مياه العرب» وصف المواطن التي تجمع فيها العرب أيام الجاهلية ، فهي دراسة لطبائع السكان في تلك البقاع ، وتعريف بقوام المعاشية

وإذا صح للشاعر الحضري أن يفضل أروند على بندا فيقول :
وقالت نساء الحى أين ابن أختنا ألا خبرونا عنه حبيمٌ وفدا
رعاه ضمان الله هل في بلادكم أخو كرم رعى لئى حسب عهدا
فإن الذى خلفتموه بأرضكم فتى ملأ الأحشاء هجرانه وجدا
أبنداكم نُنسيه أروند مر بعا ألا خلب من يشرى ببندا أروندا
فدسهن نفسى لو سمعن بما أرى رى كل جيدر من تهده عقدا
فقد صح للشاعر البدوي أن يفضل ماء «الوشل» على جميع المياها فيقول :

إقرأ على (الوشل) السلام وقل له كل المشارب مذ هجرت ذميمٌ
سقى لظلك بالمشى وبالضحى وبرد مائك والمياه حميم
لو كنت أملك منع مائك لم يذق ما في قلاتك ما حبيت لئيم (١)
وهذه الأبيات تبلغ الغاية من المعاني الوطنية ، وفيها تنوّد جذوة الصدق

وقد أعزم العرب بعد الإسلام بتقديس ما عرفوا من المياها والأنهار فزعموا أن النيل ينبع من الجنة ، ولهم في ذلك أساطير يعرفها قراء كتب الأدب والتاريخ . وأروند التي ذكرناها آنفاً عرفت الأسطورة التي تقول بأن في جبلها حيناً تنفجر من الفردوس .

وما دخل العرب بلداً إلا رأوه خير البلاد : قصر عند أهلها أطيب البلاد وهي كنانة الله في أرضه من أرادها بسوء قسم الله ظهره . والمراق عند أهلها أجل بقاع الأرض وفي رحابه قنبت عرائس الشعر وتسيطر الميون السود . والشام عند أهلها جنة

وهو كذلك ...

ولكن ما رأيك إذا صارحتك بأن كلامك هذا هو الحجة عليك ... ؟

ألم تقل بأن العرب لم يحسوا الطبيعة في بلادهم ؟ فكيف يصح هذا وكان الرجل منهم يتعلق بما يراه إلى الحد الذى عبته أنت على أولئك الرجال

السؤال المحتمل وجهين : الوجه الأول أن يكون العرب في كلامك هم أهل الجاهلية ، والثاني أن يكون العرب في كلامك هم المسلمين (١)

ولا صحة للوجه الثاني لأن العرب بعد الإسلام تغفوا بأهبار مصر والشام والعراق والأندلس غناء يشهد بأنهم فتتوا أشد الفتون بأهبار تلك البلاد حتى صح لعمر بن أبي ربيعة أن يضرب المثل بمدوبة ماء القرات فيقول :

أُسْكِنين ماماء القرات وطيبه منى على ظها وبرد شراب
بالذ منك وإن نأيت وقلما رعى النساء أمانة القُيَّاب
وحسان في جاهليته جعل ماء بردى يصفق بالرحيق . واتفق لبعض المسلمين أن يقول بأن بردى أنه بقاع الأرض ، فكيف يجوز مع هذا أن يحكموا بأن الماء الحقيق في المستنقع الجاهلي أعذب من سائر المياها في الأرض ؟

واتفق لأحد شعراء الأندلس ، وهو ابن خفاجة أن يحكم بأن الأندلس هي جنة الخلد ، ولذلك آتهم بالرواق من الدين ، فهل يصح في ذهن ابن خفاجة أن تكون المستنقعات الجاهلية أطيب من المياها الأندلسية وهي تجري في رعاية الرياض والبساتين ؟

وتحدث النويرى والمعمرى عما عرف العرب من بحار وأنهار وغدران حديثاً يشهد بأن العرب بعد إسلامهم فتتوا بما رأوا من طبيبات الوجود كل الفتون

يبقى الوجه الأول وهو أن يكون العرب في كلام أحمد أمين هم أهل الجاهلية

وأعترف بأن الجاهليين فضلوا مياهم على سائر مياها الأرض ولكن هل يدرك أحمد أمين سر هذا التفضيل ؟

(١) المسلمين في هذه العبارة أصح من المسلمين ، لأن الضمير في مثل هذه العبارة ضمير فصل لا محل له من الإعراب على أرجح الأقوال

(١) القلات هي القرات في الجبل

من أن العرب لم تكن لهم ذاتية تبطل الإسلام وأنهم لم يذوقوا طعم الجهاد إلا بفضل الدين الحنيف وما كان يؤذى العرب أن يعترفوا بتعمة الإسلام عليهم ، ولكنهم كانوا يكرهون أن يقال إنهم كانوا في كل عهود الجاهلية أذلاء .

ومن هنا رأيتهم يبدون ويعيدون في عدد أيامهم العُرُ حين أتبع لأسلافهم أن ينتصروا في بعض المواقع التي نالوا فيها أعداءهم الأشداء .

وهذا يفسر كثارهم من الطنطنة في أشعارهم بيوم ذي قار الذي انتصر فيه العرب على الفُرس انتصاراً أشرم بما في قلوبهم وعزائمهم من صلابة ومتانة وحيوية . ويوم ذي قار في الجاهلية كان له فضل في إذكاء حمية العرب يوم القادسية ، وهو اليوم الذي عرف فيه العرب أنهم قادرون على امتلاك ناصية الشرق . وقد ظل يوم ذي قار يذكر في الأشعار بمد الإسلام بأجيال طوال ، وأظنه سيذكر بمد هذه الأيام ، فإن وقائع التاريخ لها رجعات ، والأحداث الدفينة تنشرها الحوادث من زمان إلى زمان .

فإن زعم أحمد أمين أن دوسر كتيبة النعمان بن المنذر كانت عند العرب أقوى جيش عرفه التاريخ فليعرف إن شاء أن تلك الكتيبة تستحق ذلك التهويل لأنها كانت نواة الجيش الذي :
به علتْ صُهبُ الأعاجمُ أنه
به أعربتْ عن ذات أنفسها العربُ

وليس يهمني بعد ذلك أن نقض قول أحمد أمين إن العرب يرون فضائل الجاهليين خير الفضائل وردداتهم شر الرذائل ، لأن هذا الكلام لا يحتاج إلى نقض فهو أوهى من بيت المنكبوت . ولو صح أن العرب كانوا يرون حاتمياً أكرم للناس جميعاً؛ ويمتقدون أن مادراً أبجل للناس جميعاً لما كان في ذلك بأس من الوجهة الذهنية ، لأن تجسيم الصفات وتضخيمها من الأمور التي استساغها العُرف في جميع البلاد . وهل يعتقد أحمد أمين حقيقة أن العرب كانوا يريدون القول بأن حاتمياً أكرم من جميع الناس في سائر بقاع الأرض ، وأن مادراً أبجل من كان ومن سيكون في الشرق والمغرب ؟ ذلك غير معقول

الأرض وفي عرصاته يقوم الناس يوم الحساب . وهضاب فارس كانت في أنفُس شعرائها ملاعب الأفتدة والقلوب . وتونس والجزائر وسراكش كانت مراكز الجيش للرباط الذي سد الغارات الأوربية حيناً من الزمان

ولو أردنا أن نستقصي أشعار العرب في وصف ما عرف المسلمون من البلاد لجمنا من ذلك مجلدات ضخماً تصور غرام العرب بما شهدوا من أطايب الوجود

فمن أين عرف أحمد أمين أن الماء الحقيير في مستنقع جاهلي كان عند العرب خيراً من دجلة والفرات والنيل وسائر أنهار الدنيا ؟ من أين استقى مصدر هذا الحكم الخاطي الأثيم ؟

إن أحمد أمين يمزح في مواطن لا يقبل فيها المزاح . ولو كان ينتظر أن يتناول الناقدون كلامه وأحكامه بالتجريح والتزييف لأقلع عما تورط فيه من مبالغة وإغراق ، فليلق جزاء ما صنع ، وكان لنفسه من الظالمين ثم ماذا ؟

ثم نسوق القول في أيام الجاهلية التي ندد بها أحمد أمين إن أيام الجاهلية كان لها في الواقع صدق رنان في أسمع العرب بعد الإسلام ، وقد سُئِلَ بها كثير من المؤرخين ، ولكن هل تدرون لأية غاية سُئِلَ العرب بذلك التاريخ ؟

إن وقائع العرب في الجاهلية لها ألوان مختلفة ، فبعضها يصور ما كان بين قبائل العرب من نزاع وشقاق قضت بهما منافع المباش أو مطالب الجهد ، وبعضها يصور مغالبة العرب لطغيان الأحباش والفُرس والروم

أما التاريخ الذي يصور ما كان بين القبائل من حروب فكان الحرص عليه يرجع إلى غاية سياسية ، ولتلك الناية صورة هي اشتباك الأرومات العربية في الحصومات حول الناصب الرئيسية بعد أن مكّن لهم الإسلام من نواصي الجهد والمماش ، وكذلك كانت القبائل تحمي وقائع الجاهلية لتأخذ منها وقوداً لا تُؤتون للنازعات حول الرياسة والملك ... ولا يعاب على أمة أن تحمي ماضيها لتنتفع به في إذكاء المزامم والقلوب

وأما التاريخ الذي يصور وقائع العرب مع الأحباش والفُرس والروم فكانت له غاية قومية ، هي تكذيب ما ادعاه المشويبيون

ثم قال : وأين المها في بغداد أمام علي بن الجهم وأين المها في مصر والأندلس ؟

وأنا لم أزر الأندلس حتى أقرأ أو أذكر كلام أحمد أمين ، فقد لا يكون فيها غير الطباء الإنسانية ، وإنما أستطيع أن أحكم بأن أحمد أمين ينكر الواقع المحسوس حين يقول بأن أهل بغداد لا يرون الطباء ، فقد رأيتها بعيني تباع وتشترى في شارع الرشيد ولا يزال البغداديون يذهبون لصيد الغزال في نواح كثيرة منها سامراء . وعفا الله عن السيد حسين النقيب الذي مفاني بالخروج لصيد الغزال ثم اعتذر بشواغل مجلس النواب

ومن تقاليد أهل بغداد أن يربوا الطباء في دورهم كالذي رأيت في دار الشاعر ناجي التشطبي ، أراي الله وجهه الأصبح في خير وعافية !

ومن أطعمة أهل بغداد لحم الغزال ، وقد أكلته بشهية في دار ظمياء أعزها الحب !

والبصريون يرون الغزالان حين يشاهون ، فنها أسراب تفرح وتلعب بالقرب من بلدهم الجميل

والشاميون يعرفون الغزالان معرفة أكيدة لأنها تجاورهم في الصحراء الشامية

أما المصريون فهم يعرفون الطباء ، وهي كثيرة جداً في الصحراء الغربية ، وهم يطاردونها من وقت إلى وقت ، وقد حدثنا الأستاذ محمد خالد بأنه اشترك في مطاردة غزال ، وتلك إحدى الأعاجيب ، فقد كنت أحسبه من طراز الأستاذ أحمد أمين

وكلمة « طراز » تدخل في الموضوع ، فهي في الأصل علم الثوب ، كما يعبر صاحب القاموس ، ثم نسي ذلك الأصل وصار الغرض هو المماثلة في الشائيل والحاصل

ومن حقتنا أن نقول : إن أحمد أمين ينسج عجايب منوال طه حسين في تكرر الحقائق

وليس لأحد أن يعترض بأن المنوال لا تراه العيون إلا في قليل من الأحيان ، لأننا حين نعبر بمثل هذه العبارة لا نفكر في ثوب ولا منوال ، وإنما نسوق التعبير حيث وقع في كلام الأسلاف ونفهم المراد منه بلا عناء

لا يهمني أن أقتض هذا الجانب من كلام أحمد أمين فهو إغراق في التوهم والتخمين ، وإنما يهمني أن أشرح مسألة تقدها الدكتور عزام بصورة تقاير الصورة التي عرضها بلطف ورفق صراحة لمزاج الأستاذ أحمد أمين الذي يتأدب في معاملة الأحياء ويتمرد في محاسبة من أصبحوا في غيابة التاريخ ! إن أحمد أمين حكم بأن العرب في جاهليتهم انزعوا صور التعبيرات والتشبيهات والمجازات والاستعارات من البيئة التي عاشوا فيها ، فما يجوز لنا نحن أن نجربهم في تشبيهاتهم ومجازاتهم واستعاراتهم لأننا نواجه بيئة غير يشتم وهذا الحكم صحيح ، ولكن يجب أن يفهم أحمد أمين الحقيقة الآتية :

في اللغة العربية تماير كثيرة نشأت في الأصل مصبوغة بالصبغة البدوية ، ولكنها صارت على الزمن ميراثاً حلالاً يملكه أبناء العرب من جيل إلى جيل ، وقد نسي معناها الأول أو كاد بحيث لا يفظن الكاتب أو القارئ إلى أنها منقولة عن صورة بدوية فالذي يقول : « دون ذلك خرط الفتاد » لا يتصور الخرط ولا الفتاد حين ينطق بهذا التعبير . والذى يقول : « هذه مشكلة أعقد من ذنب الضب » لا يتصور العقْد في ذيل ذلك الحيوان ، وإنما يأخذ هذا التعبير قوته من الصورة المرسومة في أذهان من تداولوه على اختلاف الأحوال ، وذلك معروف في اللغات الأجنبية ففيها تماير منسبة الأصول وهي تؤدي المراد منها بلا عناء وهنا يزعم أحمد أمين أن الشاميين والمراقيين لم يروا الضب ولم يعرفوا عنه شيئاً ؟

وأعتقد أن الصواب غير ما قال ، فالشاميون والمراقيون عرفوا الصحراء وما فيها من ضباب وبرايح واستنكر أحمد أمين أن يقول المصريون والمراقيون والشاميون « عيون المها وجيد الغزالان » وتمجب من أن يقول ابن الجهم :

عيون المها بين الرصافة والجسر

جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى (١)

(١) المها واحدا مهاة ، وهي البقرة الوحشية ، وقد يراد بها الظبية ، وهي كذلك في أكثر أخيلة الشعراء ، والعرب يسمون الشمس مهاة كما يسمونها غزاة

ذلك كلامه بالحرف ، وهو يدعو إلى النظر في الألفاظ المتماثلة أو المتقاربة ، لنميت التقديم ونحيي الجديد ، ومن كلامه هذا نفهمون أن « الكأبة » نوع من الفاكهة ، بدليل أنه يقابلها بالمانجو !

فهل سمعتم أن الكأبة اسم فاكهة قبل أن يحدثكم بذلك الأستاذ أحمد أمين ؟

إن الكأبة معروفة لأهل الشام والعراق ، ومعروفة لبعض أهل مصر من الذين يتصلون بالأمر السورية واللبنانية والفلسطينية . وقد عرفتها في القاهرة قبل أن أعرفها في بغداد ، فكيف جاز للأستاذ أحمد أمين أن يظنها من الفواكه ؟ تلك والله إحدى الغرائب !

أما بعد ، فقد كنت أرجو أن يترفق الأستاذ أحمد أمين بسمته الأدبية فلا يعرضها لهذه الزلت ، وكنت أتمنى أن يكف عن السخرية من ماضي الأمة العربية ، ولكنه أراد أن يمضي في العناد وفي اللجاجة إلى آخر الشوط فيزعم أن شعراء العرب وكتابتهم لم يعرفوا الثورة على المظالم ، ولم يعرفوا تحليل المقاصد والأغراض في الشعر والإنشاء

وذلك كله ظن وترجيح ، وسنحاسبه أشد الحساب ، عساه ينتهي عن اللجاجة والعناد

وإني لو اتقن بأنه يطرب لهذه المباحث التي تكشف له آفاقاً من الحقائق الأدبية ، وتعينه على فهم ما خفي عليه من مكانة العرب في التاريخ .

زكي مبارك

(لحدث شجون)

وفي اللغة العربية تمايز لا نكاد نفهم الغرض منها بالتحديد ، ولكنها في غاية من الانسياح

ومن شواهد ذلك ما وقع بين الأستاذ سعد اللبان والدكتور هيكل باشا في مجلس النواب . فقد هجم الأستاذ سعد اللبان على إحدى كليات الجامعة المصرية هجومًا عنيفًا ، فقال الدكتور هيكل باشا : هذا كلام يلقى على عواهنه !

ومن المؤكد أن أكثر النواب لم يفهموا المراد بالمواهن ، ولكن هذه العبارة وقعت منهم موقع القبول ، لأنها خير عبارة تقال في ذلك المقام الدقيق ، وهي على عنفها لا تبحر الذوق واعترض الأستاذ أحمد أمين على قولهم : « فلان يعرف من أين تؤكل الكتف » وعدها عبارة بدوية لا يجوز لحضري أن يدونها في مقال أو ينطق بها في حديث

والظاهر أن الأستاذ أحمد أمين يظن أن أهل الحضرة لا يباكلون الخمر إلا مقطعة بأيدي الفصاين فهو لذلك يتوهم أنهم لا يحتاجون إلى الاحتراس عند أكل الكتف

فليعرف (إن شاء) أن الناس لا يزالون يدركون هذه العبارة في أصلها الأصيل ، وقد رأيت الرجل البدوي الحضري عبد الستار بك الباسل يداعب أحد ضيوفه بتسليط تيار الكتف عليه ، وهو تيار قد سلط مرة على الأستاذ أحمد أمين فيعرف من أين تؤكل الكتف !

من حق أحمد أمين أن يرى الناس جميعاً مقلدين في الأخيلة والتمايز ، لأنه من أبعد الناس عن مواجهة الحياة ، وأكاد أجزم بأنه لا يسار الحياة الأدبية والفنية والاجتماعية إلا عن طريق القراءة أو السماع ، وإلا فمن الذي رآه مرة يشهد رواية سينائية أو يشهد حفلة من حفلات التمثيل ؟

وأعيذكم أن تظنوا أنني أتجنى على الأستاذ أحمد أمين ، فهذا الرجل على فضله قليل الخبرة بألوان الوجود ، وقد تقع منه أحياناً عبارات تضحك الحزين . أليس هو الذي يقترح أن « نميت القمار ونحيي الزئبق ، ونميت الكأبة ونحيي المانجو ، ونميت القوس ونحيي القنابل ، ونميت الخرنوب ونحيي ما يدل على الموبليا » ؟

